Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 2, Issue 1 (2023) • P: 49 - 32
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

The Usage: A Historical Analytical Study

Dr. Rana Aniss Bleik
Faculty of Literature and Humanities | Global University | Beirut | Lebanon

Received: 17/08/2022
Revised: 27/08/2022
Accepted: 19/09/2022
Published: 30/03/2023

* Corresponding author: wowaydah@gmail.com

Citation: Bleik, R. A. (2023). The Usage: A Historical Analytical Study. *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 2(1),* 32 – 49. https://doi.org/10.26389/AJSRP.E170822

2023 © AJSRP • National Research Center, Palestine, all rights reserved.

• Open Access

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: This study aims to shed light on the development of the speech of Arabs from the era of ignorance until our age and exposing its beauties and effects in understanding the literary texts in general and the texts of the Hadiths specifically. This chapter being the most accurate in Rhetorics, has not been tackled by the researchers to expose its beauties and treasures. The reason is the rarity of the resources and references in it, and the excessive difficulties that stand an obstacle in the face of the researcher should one attempts to engage this deep ocean.

It has been rare to find this type of Rhetoric in the poetry of the Arabs and their speeches from the century of ignorance until the Abbasid century despite the abundance of examples present in the Qur'an and the honorable prophetic sayings due to their lack of attention, most likely, to Figurative rhetorics. Thereafter the Umayyads and then the Abbasids came about and started attending to documenting the sciences, and the studies of rhetorics began and the scholars started compiling and editing, however, the usage of rhetorics was not found in one organized compilation and the poets have not paid attention to it and have rarely beautified their poems with it.

In the seventh century during the era of the Mamelukes and due to the reversion of the poets to the science of Figurative rhetorics. and innovating in it, they used it abundantly in their poems. However, this did not last for long, and it dwindled.

I have elucidated all of that in my study and have exposed the beauties of the implementation through the Qur'anic texts and the honorable prophetic sayings and the poetic manifestations showing its meanings and the beauty of implementation in it

Keywords: The usage (Istikhdam)- Meanings-Beauties- Rhetorics-Applied Proofs.

الاستخدام: دراسة تاريخية تحليلية

الدكتورة / رنا أنيس بليق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية | الجامعة العالمية | بيروت | لبنان

المستخلص: يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على تطور الاستخدام في كلام العرب من العصر الجاهلي إلى عصرنا وإظهار جمالياته وتأثيره في فهم النصوص الأدبية إجمالًا والقرآنية والحديثيّة خصوصًا. هذا الباب الذي هو أدق باب في البلاغة، لم يشتغل في استخراج كنوزه وجمالياته الباحثون، ولعلَّ ذلك يرجع إلى ندرة المصادر والمراجع فيه، وكثرة الصعوبات التي تقف عقبة في وجه الباحث إن أراد خوض هذا البحر العميق.

لقد ندر وجود هذا النوع البلاغيّ في أشعار العرب وخطبهم من العصر الجاهلي حتى العباسي رغم كثرة أمثلته في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف لعدم اعتنائهم في الغالب بالبديع، ثم جاء الأمويّون فالعباسيّون وبدأ الاهتمام بتدوين العلوم، وأقيمت الدراسات البلاغية واشتغل العلماء بالتصنيف والتدقيق، بيد أن الاستخدام لم يُفرد له مصنَّف بشكل منظم، ولم يلتفت إليه الشعراء ويُزينوا به أشعارهم إلا النادر، ثم في القرن السابع في عصر المماليك وبسبب لجوء الشعراء إلى البديع وتفنُّنهم فيه كثر الاستخدام في أشعارهم، غير أنَّ هذا لم يدُم طويلًا، فعاد واضمحلّ.

لقد بيَّنت كل هذا في بحثي وأظهرت جماليات الاستخدام من خلال الشواهد القرآنية والحديثيَّة والشعريَّة مع بيان معانيها وجمال الاستخدام فيها.

الكلمات المفتاحية: الاستخدام، المعنى، جماليات، بلاغة، شواهد.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان عربي مبين، وتفضَّل على عباده بنعمة النطق والتبيين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله أفصح العرب أجمعين، وعلى آله وصحبه وسلّم إلى يوم الدين وبعد:

فالاستخدام في أنواع البديع كالنعمان في الحيرة همامًا آمرا1، وفي الكوفة نحريرًا مناظرا2، أو كشقيقه3 يباري بحسنه الورد4 إذا زان سَباسِا5، ويصرعه6 إذا ورد البحيرة شارِبا7، فإذا فتنك حاجبٌ من حِسانه فرُمْتَ وصالا، دفعك عن الباب ما لم تحُز كمالا، وسلْ مَن يمَّمَ العقيق8 فكان مِزاجًا لدموعه، أو الغضا9 فاتقد بين ضلوعه.

قد حرصتُ عند اختيار الموضوع أن يكون له تعلّق بعلم البلاغة؛ لأنَّ بعض مسائله قلّ مَن توسَّع فيها، وقد وُفِّقْت ولله الحمد إلى اختيار نوع بديعيّ لم يخض غماره ويستخرج غوامض أسراره كثير من الباحثين.

1- مشكلة البحث:

المشكلة الرئيسية التي سأحاول في بحثي هذا المتواضع أن أكشف غوامضها:

1. بيان أهمية فهم الاستخدام في تفسير كلام الله تعالى وكلام رسوله.
2. بيان تطور استعمال الاستخدام تاريخيًّا من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي في الشعر.

الدراسات السابقة:

لم أجد بعد طول بحثٍ مَن أفرد الاستخدام بمصنف خاص، إنما اقتُصر على ذكره في طيات كتب البلاغة، إلا أنني اطلعت على "كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام" لابن حجة الحموي10 وهو كتاب مطبوع، و"فضّ الختام عن التورية والاستخدام" لصلاح الِدين الصفدي11 وهو مطبوع أيضًا، غير أنَّ القسم الأكبر فيهما عن التورية واقتصرا على بضعة وُرَيقات للكلام فيهما عن الاستخدام.

---

(1) هو النعمان بن المنذر وكانت الحيرة عاصمة ملكه. "المرزباني محمد بن عمران"، *"معجم الشعراء"* (ص/205)، فالمراد تشبيه الاستخدام بالمَلِك.

(2) هنا يوجد استخدام حيث رفع "نحريرا" ضميرًا مستترًا عائدًا على النعمان بمعنى الإمام الجليل أبي حنيفة رضي الله عنه. والمراد من ذلك تشبيه الاستخدام بالعالم من حيث إنَّ مَن يستعمله يحتاج إلى دراية وعلم ومعرفة باللغة.

(3) أي كشقيق النعمان، والمراد به هنا زهر الشقيق المعروف.

(4) أي الورد المعروف.

(5) جمع السبسب وهي المفازة. "ابن منظور الأنصاري محمد"، *"لسان العرب"* (460/1).

(6) الهاء في "يصرعه" يرجع إلى "الورد" بمعنى الأسد. "مرتضى الزبيدي محمد بن محمد"، *"تاج العروس من جواهر القاموس"* (286/9).

(7) في هذا إشارة إلى بيت المتنبي المعروف [الكامل]:

وردٌ إذا ورد البُحيرة شاربًا وردَ الفراتَ زئيرهُ والنيلا

"المتنبي"، *"ديوان المتنبي"* (ص/145).

(8) هنا العقيق بمعنى الوادي. "مرتضى الزبيدي محمد بن محمد"، *"تاج العروس"* (168/26).

(9) أي يمَّم الغضا.

(10) هو أبو بكر بن علي الحمويّ، أديب شاعر، وُلد في حماة سنة 767هـ، من مصنفاته "خزانة الأدب" و"ثمرات الأوراق"، توفي في حماة سنة 837هـ. "السخاوي محمد بن عبد الرحمن"، *"الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر"* (295/1)، و"العكري عبد الحيّ"، *"شذرات الذهب في أخبار من ذهب"* (219/7).

(11) هو خليل بن أيبك الصفدي، أديب مؤرخ، ولد في صفد بفلسطين وإليها نسبته سنة 696هـ، من مشايخه تقي الدين السبكي وفتح الدين بن سيد الناس، له الكثير من المصنفات منها "الوافي بالوفيات" و"نكت الهميان". توفي سنة 764هـ. "السبكي عبد الوهاب"، *"طبقات الشافعية الكبرى"* (5/10)، و"ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي"، *"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"* (87/2).

2- أهمية موضوع البحث:

أهميَّة هذا البحث تكمن في كونه مفتاحًا من مفاتيح البلاغة، به يُكشف المعنى الخفي، وتبرز جماليَّة صنعة الأدب، وكلما امتلك الانسان شيئًا من البلاغة حُلَّت عقدة اللسان لديه وتقوَّى عنده البيان، فكيف إن كان الموضوع قد ندر مَن أبحر فيه وصنّف؟

3- أسباب اختيار الموضوع:

1. إنَّ علم البلاغة أسهم في إظهار مواضع الإعجاز القرآني من براعة التركيب وسلامة الألفاظ وعذوبتها، وبرزت فائدته في استيضاح أحكام القرآن الكريم وفهم معانيه، والاستخدام باب من أدقّ أبواب هذا العلم.
2. ندرة المصنَّفات المفردة في الاستخدام فإننا نجد ذكره في ثنايا كتب البلاغة بإيجاز واختصار، ببيان حده وذكر أمثلة قليلة متكررة، فأردت أن أقدِّم لطلاب العلم بحثًا متخصِّصًا بهذا النوع البلاغيّ يُظهر وقوعه في كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، وفي أشعار العرب.

4- صعوبات العمل:

مما لا شكَّ فيه أنَّ من أبرز الصعوبات في بحثي هذا ندرة المراجع المتخصصة فيه، فاحتيج إلى الكثير من التقميش من كتب البلاغة والأدب وكتب التفسير وعلوم القرآن وكتب الأحاديث وتفسيرها ودواوين الشعراء وأشعار العرب في محاولة لجمع ما استطعت من هذا التراث الضخم.

5- أهداف البحث:

من الأهداف الأساسية التي أرغب في الوصول إليها:

1. إلقاء الضوء على تطور الاستخدام في كلام العرب.
2. إغناء المكتبة العربية بأبحاث متخصصة غير مطروقة.

6- منهجية البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على منهجين:

1. المنهج الاستردادي التاريخي: وذلك بمُطالعة أمثلة من القرآن والسنة والشعر حتى العصر العباسي وقع فيها الاستخدام وجمعها وترتيبها للتوصل إلى النتائج المرجوة من هذا البحث.
2. المنهج التحليلي التفسيري، لبيان معاني الألفاظ اللغوية الواردة في البحث.

7- خطة البحث:

خطة البحث تتألف من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبحاث وخاتمة وفهرست المصادر والمراجع.

- المقدمة فيها:
  1. مشكلة البحث.
  2. الدراسات السابقة.
  3. أهمية الموضوع.
  4. أسباب اختيار الموضوع.
  5. صعوبات العمل.
  6. أهداف البحث.
  7. منهجية البحث.
  8. خطة البحث.
- التمهيد فيه الكلام على أهمية علم البلاغة بين علوم العربية التي من أبوابها الاستخدام.
- المبحث الأول: حد الاستخدام وتطوره عبر التاريخ.

- المبحث الثاني: الاستخدام في القرآن والحديث.
- المبحث الثالث: الاستخدام في الشعر العربي.

وأختم المبحث الثالث ببيان جماليات الاستخدام.

- وخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات.
- فهرست المصادر والمراجع.

تمهيد

البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من صور اللفظ، إنها تعتمد على الفصاحة في الكلمات والجمل مع مراعاة مقتضى حال السامع والمخاطب في الكلام.

وموضع علم البلاغة من العلوم العربية موضع الرأس من الإنسان، أو اليتيمة من قلائد العِقْيان12، فلا فضيلة لكلام على كلام إلا بما يحويه من لطائفها، ولا ترجيح لتعبير على آخر إلا بما يجنيه من يانع أثمارها، من هنا فإنّ لهذا العلم فوائد كثيرة، لا يمكن الحصول عليها إلا بعد التعمّق في دراستها والتضلّع بفنونها وأفنانها. ومما يُدرس في البديع الاستخدام الذي قلَّ من البلغاء مَن تكلَّفه، ومن الأدباء والشعراء مَن خاض غماره، المتقدمون منهم ما قصدوه، وأما المولدون من الشعراء13، كالفرزدق14 وجرير15 ومن عاصرهما وخاض معهما لجة بحر البلاغة فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير إلا نادرًا، فما تنبَّه لمحاسنه وتيقَّظ وتحرّى وتحرّر إلا مَن تأخَّر من الشعراء والكُتّاب، وتضلع من العلوم وتطلع من كلّ باب. هو مسلك شديد الالتباس بالتورية، إلا أنه أعلى رتبة عند علماء البديع منها.

المبحث الأول: حدّ الاستخدام وتطوره عبر التاريخ

أ- حدّه:

هو في اللغة استفعال من الخدمة، أمَّا في الاصطلاح وهو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثمّ بالآخر الآخر، أو يراد بأحد ضميرين أحدهما، ثم بالآخر الآخر16. فالمشترك إذا لزم استعماله في مفهوميه معًا، فهو الاستخدام، وإن لزم في أحد مفهوميه في الظاهر مع لمح الآخر في الباطن فهو التورية"17.

ب- تطوره عبر التاريخ:

يُعدّ علم البلاغة من أبرز علوم اللغة العربية وأكثرها شهرةً، فهو علم ملازم لعلم الفصاحة والبيان مما يجعله دليلًا واضحًا على رفعة الأدب وإبراز ما فيه من جمالية وصنعة أدبية وفنّ، وذلك ما يفسّر اهتمام العرب الأوائل به.

لقد كانت البلاغة هي الفيصل والحَكَم الأبرز على جودة الأشعار وإتقانها، ولا زالت كذلك حتى يومنا هذا. فقد كان سوق عكاظ يعدّ ميدانًا تُترجم فيه علوم البلاغة، إذ كان الناس يتجمهرون فيه لعقد مباراتهم الأدبية

---

(12) العِقيانُ من الذهب: الخالص، يقال: هو ما ينبت نباتًا في معدنه وليس مما يحصَّل من الحجارة. "الفارابي إسماعيل بن حماد"، *"الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية"* (2433/6).

(13) الشاعر المولَّد هو من وُلد بين العرب. "ابن سعيد اليمني نشوان"، *"شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم"* (7294/11).

(14) هو همَّامُ بنُ غالِب بنِ صَعْصَعةَ، شاعر معروف، وُلد في خلافة عمر جُمع شعره في ديوان مطبوع، توفي سنة 110هـ. "المرزباني محمد ابن عمران"، *"معجم الشعراء"* (ص/486)، و"ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي"، *"لسان الميزان"* (433/4).

(15) هو جرير بن عطية، شاعر معروف، ولد في اليمامة سنة 28هـ، جمع شعره في ديوان مطبوع في جزأين، توفي سنة 110هـ. "الدينوري عبد الله ابن مسلم"، *"الشعر والشعراء"* (374/1) و"البرمكي أحمد بن محمد"، *"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"* (321/1).

(16) "عصام الدين إبراهيم بن محمد"، *"الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم"* (110/1).

(17) " ابن حجة الحموي تقي الدين"، *"كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام"* (ص/163).

والشعرية، فعُدَّ موقعًا مهمًا لإطلاق العنان لأدوات البلاغة عند الشعراء والاطلاع عليها وإتقانها، خاصة أنَّ أشعارهم كانت تخضع للتحكيم من زمرة معروفة بباعها الطويل في الأدب وحنكتها اللغوية، ومع هذا فإنَّ المطَّلِع على الشعر الجاهلي لا يجد فيه استخدامهم للاستخدام.

بعد البعثة ظهرت عوامل عديدة أدّت إلى الاعتناء بصياغة الكلام، وإظهار المعاني والتراكيب بصورة جميلة وجذّابة، منها نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ، وقد كان لهذه الآيات الأثر البالغ في النفوس، ورقّة الأحاسيس، وتسامي الأذواق، فقد انبهروا ببلاغة القرآن الكريم ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الإتيان بمثله، فأخذوا يتعرفون إلى جماليات خصائصه ومظاهر نظمه، وكان أيضًا لأحاديث الرسول الكريم ﷺ دور عظيم في صياغة الكلام وجماليّته، وكذلك اتصف الخلفاء الراشدون بقوة الخطابة، وكانت لهم ملاحظات في نقد صياغة الكلام وبلاغته.

مَن تمعَّن في النصوص الأدبية لهذا العصر يلحظ وجودًا للاستخدام وإن كان قليلًا، كما سيظهر في هذا البحث، من هنا ستكون رحلتنا مع الاستخدام.

عندما جاء الأمويون زادت الملاحظات البلاغيّة بسبب تطوّر الخطابة وتنوّع أساليبها، ومع ذلك لم يكن لهذا النوع البديعيّ ورودٌ إلا نادرًا، ثم جاء العصر العباسي حيث بدأ تدوين علم الدراسات البلاغيّة التي قامت على أسس الملاحظات النقديّة، ومن هذا التاريخ ابتدأ الأدباء في التصنيف في أسرار البلاغة، كعبد القاهر الجرجاني18 وعبد الله بن المعتز19.

في البداية لم تكن هذه البحوث منظمة غير أنه عندما أتى الإمام الجرجاني رتَّب أبواب البلاغة وهذَّبَ بحوثها وتبعه السكاكي20 ثمَّ الخطيب القزويني21 ثم سعد الدين التفتازاني22. من هنا بدأت دراسة الاستخدام بشكل منظَّم، رغم ذلك فإنه لم يفرَد بالدراسة والتفصيل والبيان، وشيئًا فشيئًا التفت الشعراء إليه وزيّنوا به شعرهم. لقد قوِي إدراج البديع ولا سيَّما الاستخدام بين القرنين السابع والثامن- كما سيظهر في هذا البحث- بحيث يُمكن عدّ حدود منتصف القرن الثامن نقطة تحوّل إلى العناية بالتورية أكثر من العناية بالاستخدام، إذ بدأ تقلّص اللجوء إلى الاستخدام وتصاعد الاعتناء بالتورية، فهما أشبه بالقطارين يتعاكس اتجاه سيرهما، وتتفاوت السرعة في هذا تناقصًا وفي هذا تزايدًا حتى إذا التقيا كان ما بعد الملتقى انحدارًا وانكماشًا في واحد وتصاعدًا واتّساعًا في آخر.

---

(18) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، واضع أصول البلاغة من أئمة اللغة، أخذ عن أبي الحسين محمد بن حسن، ومن تلاميذه علي ابن أبي يزيد، من مصنفاته "أسرار البلاغة" و"إعجاز القرآن"، توفي سنة 471هـ. "الذهبي محمد بن أحمد"، *"سير أعلام النبلاء"* (432/18) و"صلاح الدين محمد بن شاكر"، *"فوات الوفيات"* (297/1).

(19) هو عبد الله بن محمد المعتز باللَّه، خليفة يوم وليلة، شاعر، ولد في بغداد سنة 247هـ، صنف كتبًا منها "الزهر والرياض" و "البديع" و"الآداب"

و"طبقات الشعراء"، توفي سنة 296هـ. "الصفدي خليل بن أيبك"، *"الوافي بالوفيات"* (240/17) و"العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (38/2).

(20) هو يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي، عالم بالعربية والأدب. ولد في خوارزم سنة 555هـ، أخذ عن سديد الخياطي، ومن تلاميذه مختار ابن محمود الزاهدي، من كتبه "مفتاح العلوم" و"رسالة في علم المناظرة"، توفي سنة 626هـ. "الحموي ياقوت"، *"معجم الأدباء"* (2846/6) و"العكري عبد الحي"، *"شذرات الذهب"* (122/5).

(21) هو محمد بن عبد الرحمن القزويني، قاض من أدباء الفقهاء. ولد في الموصل سنة 666هـ، من مشايخه شمس الدين الأيكي، من كتبه "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح"، توفي سنة 739 هـ. "الصفدي خليل بن أيبك"، *"الوافي بالوفيات"* (199/3) و"العكري عبد الحي"، *"شذرات الذهب"* (300/4).

(22) هو مسعود بن عمر التفتازاني، من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان سنة 712هـ. أخذ عن العضد، من كتبه "تهذيب المنطق"، و"المطول" و"شرح العقائد النسفية" و"شرح التصريف العزي"، توفي في سمرقند سنة 793هـ. "ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي"، *"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"* (112/6) و"السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر"، *"بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"* (285/2).

المبحث الثاني: الاستخدام في القرآن والحديث:

أ- الاستخدام في القرآن:

لما كان أعلى ما يُدرسُ في البلاغة كتاب الله تعالى، الذي أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم، وأذهلت كلماته النَّيّرة الساطعة وآياته الباهرة الوضَّاءة عقول الناطقين بلغة الضاد، وما زال مرجعهم فيما احتواه من سلاسة في العبارة وعذوبة في اللفظ وعمق في المعنى، اخترت أن أبدأ بدراسة مواضع الاستخدام التي وردت في القرآن الكريم، ولا أقول إنني أحطت بها، إنما حاولت أن أُعَدِّد الأمثلة وأُبيّنها على ما يُوافق معنى الآيات وتفسيرها.

فمنها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[23]، والشهر اسمٌ للزمان المخصوص من أوّله إلى آخره، وشهودُه إنما يحصُلُ عند الجزء الأخير منه، فظاهر الآية الكريمة يقتضي أنَّ شهود الجزء الأخير من الشَّهر يوجِبُ صوم كلّ الشهر، وهذا محالٌ، لأنه يقتضي إيقاع الفعل في آخر الزَّمان المنقضي، لذا كان لا بُدَّ من أن يحمل لفظُ الشهر على جزء من أجزاء الشهر، فيصير تقديره: "من شَهِدَ جزءًا من أجزاء الشَّهر فليصم كلَّ الشهر"، والهلال يدل على هذا الجزء، إذ أصل لفظة "الشهر" في كلام العرب: "الهلال" واللغويون يذكرون ذلك نصًّا[24] فيكون المراد: "من شَهِدَ هِلاَل رمَضَان فليصم الشهر" وعلى هذا يستقيم معنى الآية[25] فيكون إطلاق لفظ الشهر على معنى الهلال وعود الضمير على معنى الزمان. وكذا قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[26] فإنَّ لفظة ﴿كتاب﴾ يُراد بها الأمد المحتوم والمكتوب، وقد توسَّطت بين لفظتي ﴿أجل﴾ و ﴿يمحو﴾ فاستُخدم أحد مفهوميها وهو الأمد بقرينة ذكر ﴿أجل﴾ واستخدم المفهوم الآخر وهو المكتوب بدليل ﴿يمحو﴾[27]. وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾[28] فإنَّ لفظ "الصلاة" يَحتمل إرادة نفس الصلاة ذات الركوع والسجود، ويحتمل موضعها وهو المسجد[29]، فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ لا تُصلّوا، فتُحمَل الصلاة على المعنى الأول، ويكون المعنى الثاني لها هو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه[30]. ومما ورد في القرآن مما فيه استخدام قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[31] فأمر الله يراد به العذاب وظهور النبي ﷺ، وقد أُريد الثاني في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ وأُعيد الضمير عليه في "تستعجلوه" مرادًا به العذاب[32]، وكذا قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾[33] فإن المراد

---

(23) البقرة/185.

(24) "الفيروزآبادي محمد بن يعقوب"، *"القاموس المحيط"* (421/2).

(25) "الرازي محمد بن عمر"، *"مفاتيح الغيب التفسير الكبير"* (256/5) و"النعماني عمر بن علي"، *"اللباب في علوم الكتاب"* (284/3).

(26) الرعد/39.

(27) "ابن الواحد المصري عبد العظيم"، *"تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن"* (ص/276) و"الزركشي محمد بن عبد الله"، *"البرهان في علوم القرآن"* (447/3).

(28) النساء/43.

(29) "إطلاق لفظ الصلاة على المسجد محتمل فيكون من باب حذف المضاف، والمعنى: لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى وحذف المضاف جائز سائغ، ويدل عليه قوله تعالى: "لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ" والمراد بالصلوات مواضعها، فثبت أنَّ إطلاق لفظ الصلاة والمراد مواضعها جائز". "الخازن علاء الدين علي بن محمد"، *"لباب التأويل في معاني التنزيل"* (ص/378).

(30) "الجرجاني عبد القاهر"، *"دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر"* (490/1) و"السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر"، *"الإتقان في علوم القرآن"* (288/3).

(31) النحل/1.

(32) "الأندلسي أبو حيان محمد بن يوسف"، *"البحر المحيط في التفسير"* (503/6) و"السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر"، *"الإتقان في علوم القرآن"* (288/3).

(33) المؤمنون/13.

بـ"الإنسان" آدم عليه السلام، ثم أُعيد عليه الضمير مرادًا به ولده[34]. وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[35] فقوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي طلبها، وليست الهاء في "لها" راجعة على لفظ أشياء في قوله تعالى: ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾ إنما المراد أشياء أخر، لأنَّ الأولين لم يسألوا عن الأشياء التي سأل عنها الصحابة فنهوا عن سؤالها، ويدلّ على ذلك أنه لو كان الضمير عائدًا عليها لتعدى إليها بـ "عن" لا بنفسه، فهو مفعول مطلق لا مفعول به[36]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[37] أي أيقن أهل تلك الأرض قادرون عليها أي على ما أنبتته، فالضمير في "عليها" وإن كان في الظاهر عائدًا إلى الأرض، إلا أنّ المراد النبات[38]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ﴾[39] معناه أنَّ مَن أعرض عن القرآن ولم يؤمِن به ولم يعمل بما فيه فإنَّه يحمل يوم القيامة وزرًا، والوزرُ هو العقوبة الثقيلة، سُمّيت بذلك تشبيهًا لها بالحمل الثقيل، ومعنى ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي في جزاء الوزر، وجزاؤه جهنم، فرُدّ الضمير إلى الوزر والمراد جهنم[40]. ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[41] فالعمر اسم لمدة عِمارةِ البَدَن بالحياة، والضمير في "عمره" راجع الى "المعمَّر"، والنقصان من عمر المعمَّر محال، فيُرادُ من ضمير المعمَّر ما من شأنه أن يُعمّر على الاستخدام، والمعنى ولا ينقص من عمر أحد، لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائدًا، بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا[42]. وكذا قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾[43] فالمراد بدلوك الشمس زوالها فدخل الظهر والعصر والمغرب والعشاء، و"قرآن الفجر" صلاة الفجر، وعُبِّر عنها بـ"القرآن" لأنَّ القراءة فيها طويلةٌ مجهورٌ بها، فالآية جامعة للصلوات الخمس[44]، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ الضمير المجرور بالباء "به" راجع إلى القرآن من حيث هو لا بقيد إضافته إلى الفجر[45] ففي الكلام استخدام. وقوله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ

(34) "الطبري محمد بن جرير"، *"جامع البيان في تأويل القرآن"* (19/14) و"السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر"، *"الإتقان في علوم القرآن"* (288/3).

(35) المائدة/102.

(36) "الزركشي محمد بن عبد الله"، *"البرهان في علوم القرآن"* (33/4) و"السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر"، *"الإتقان في علوم القرآن"* (337/2).

(37) يونس/24.

(38) "ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي"، *"زاد المسير في علم التفسير"* (325/2) و"الرازي محمد بن عمر"، *"مفاتيح الغيب في التفسير الكبير"* (238/17).

(39) طه/101.

(40) "القرطبي محمد بن أحمد"، *"الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي"* (244/11) و"النعماني عمر بن علي"، *"اللباب في علوم الكتاب"* (380/13).

(41) فاطر/11.

(42) "السمين الحلبي أحمد بن يوسف"، *"الدر المصون في علوم الكتاب المكنون"* (219/9) و"ابن محمد الحنفي أحمد"، *"حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عنايةُ القاضي وكفايةُ الرّاضي على تفسير البيضاوي"* (219/7).

(43) الإسراء/79.

(44) "الجرجاني عبد القاهر"، *"دَرْجُ الدُّرر في تفسيرِ الآي والسُّوَر"* (223/2) و"القرطبي محمد بن أحمد"، *"تفسير القرطبي"* (306/10).

(45) "الأندلسي أبو حيان محمد بن يوسف"، *"البحر المحيط في التفسير"* (99/7) و"النعماني عمر بن علي"، *"اللباب في علوم الكتاب"* (360/12).

فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾[46]، الضمير في ﴿ سَأَلْتُمُوهُنّ﴾ يعود على "البيوت" والمراد النساء[47] وذلك لأنَّ البيت يطلق على المرأة لملازمتها له عادة. فأُعيدَ الضمير على "البيوت" مرادًا به النساء استخدامًا[48].

ب- الاستخدام في الحديث:

أوتي سيدنا محمّد عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، فكانت البلاغة واضحة في ألفاظه ومعانيه، فكلامه عليه الصلاة والسلام جزل التركيب، متناسب الأجزاء، واضح الصلة بين اللفظ والمعنى، جيّد الرّصفِ، ناصع البيان.

ومما ورد من الحديث وفيه الاستخدام قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «لو أُهْدِي إليّ كُراع لَقبِلتُ، ولو دُعِيتُ عليهِ لَأجبتُ»[49] و"الكُراع" يدُ الشاة[50]، وقوله: "لقبلت" أي لم أرُدَّه جبرًا لخاطر مَن أهداه، "ولو دعيتُ" للضيافة عليه "لأجبت" لأن القصد من قبول الهدية وإجابة الدعوة تألف مَن فعل ذلك وجبر خاطره وطلب التحاب وفي الرد تنفير عن ذلك، والكراع أيضًا موضع بين الحرمين[51]، ويحتمل أنه أريد بالهاء في "عليه" الموضع المذكور فيكون من باب الاستخدام.

وكذا قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[52]، لقد بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل رجلًا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: "أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟" قالوا: "بلى"، قال: "فاجمعوا لي حطبًا"، فجمعوا، فقال: "أوقدوا نارًا"، فأوقدوها، فقال: "ادخلوها"، فجعل بعضهم يمسك بعضًا، ويقولون: "فررنا إلى النبي ﷺ من النار"، فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف» فيحتمل أن يكون المراد "لو دخلوها" مستحلين "لما خرجوا منها" أبدًا، وعلى هذا ففي العبارة استخدام؛ لأنَّ الضمير في قوله: "لو دخلوها" للنار التي أوقدوها، والضمير في قوله: "ما خرجوا منها أبدًا" لنار الآخرة؛ لأنهم ارتكبوا ما نهوا عنه من قتل أنفسهم[53].

ومنه قوله ﷺ: «من أتى حائضًا أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فقد كفر بما أُنزل على محمَّد»[54]، فلفظ "أتى" مشتركٌ هنا بين المجامعة وإتيان الكاهن، والمراد بـ"ما أنزل على محمد" الكتابُ والسُّنَة، أي من ارتكب الهناتِ فقد برئ من دين محمَّد ﷺ[55]، على هذا يكون قد وقع في هذا الحديث استخدام.

---

(46) الأحزاب/53.

(47) "الخطيب الشربيني محمد بن أحمد"، *"السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير"* (266/3).

(48) أو يقال الضمير في "سألتموهنّ" لنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدلالة بيوت النبي؛ لأنَّ فيها نساءه. "النسفي عبد الله بن أحمد"، *"تفسير النسفي"* (42/3).

(49) "الترمذي محمد بن عيسى"، *"سنن الترمذي"* أبواب الأحكام، باب ما جاء في قبول الهدية وإجابة الدعوة، الحديث (1338) عن أنس بن مالك رضي الله عنه (615/3).

(50) "ابن منظور الأنصاري محمد"، *"لسان العرب"* (378/2).

(51) "المناوي محمد"، *"فيض القدير شرح الجامع الصغير"* (314/5) و"ابن إسماعيل الأمير محمد"، *"التنوير شرح الجامع الصغير"* (141/9).

(52) "البخاري محمد بن إسماعيل"، *"الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري"*، كتاب المغازي، باب سريَّة عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز المدلجي، الحديث (4340) عن عليّ رضي الله عنه.

(53) "ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي"، *"فتح الباري شرح صحيح البخاري"* (60/8) و"العيني محمود بن أحمد"، *"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"* (315/17).

(54) "ابن ماجه محمد"، *"سنن ابن ماجه"*، كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن إتيان الحائض، الحديث (639) عن أبي هريرة رضي الله عنه (209/1).

(55) "الطيبي الحسين بن محمد"، *"شرح الطيبي على مشكاة المصابيح"* (857/3) و"الهروي القاري علي بن محمد"، *"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"* (495/2).

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فرأَيتُ مشارقَها ومغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطِيتُ الكَنزَيْن الأَحْمرَ والأبْيضَ، وإني سأَلْتُ ربّي لأُمَّتِي أنْ لا يُهْلِكَها بسنَةٍ عَامَّةٍ، وأنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا منْ سوى أنفُسِهِم، فيستَبِيحَ بيْضَتَهُم، وإنَّ ربّي قال: "يا مُحمَّدُ إنّي إذا قَضَيْتُ قَضاءً فإنَّهُ لا يُرَدُّ، وإنّي أعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا من سوى أَنْفُسِهِم، يسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، ولو اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بأقْطَارِهَا - أَو قالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حتَّى يَكونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[56].

ومعنى "إنَّ الله زوى لي الأرض" جمعها لأجلي، والمراد أنَّه طوى له الأرض، وجعلها مجموعة كهيئة كفٍّ في مرآة نظره، ولذا قال: "فرأيت مشارقها ومغاربها" أي: جميعَها، "وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها" "من" في "منها" للتبعيض، ذلك أن ملك هذه الأمة ما بلغ جميع الأرض، فالمراد بالأرض أرض الإسلام، وإن ضمير "منها" راجع إليها على سبيل الاستخدام[57]. وقال ﷺ: «أسرعوا بالجنازة فإن تكن صالحةً فخيرٌ تقدِّمونها إليه وإن تكن غير ذلك فشرٌّ تضعونه عن رِقابِكم»[58] قوله: "أسرعوا بالجنازة" ظاهرُه الأمر بالإسراع في المشي، ويحتمل الأمر بالإسراع في التجهيز، وعلى الثاني يكون الوضع عن الرقاب كناية عن التبعيد عنه وترك التلبس به، "فخير تقدمونها إليه" الظاهر أن التقدير وهو خيرٌ، أي الجنازة بمعنى الميت، لمقابلته لقوله: "فشر"، وحينئذ لا بد من اعتبار الاستخدام في ضمير "إليه" الراجع إلى الخير[59]. وقال ﷺ: «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف»[60]، "أعلنوا هذا النكاح" إشارة إلى تعظيمه "واجعلوه" أي عقده "في المسجد" لتشهد عليه طائفة من المسلمين "واضربوا عليه بالدفوف" أي على النكاح والمراد مقدماته من الزفاف[61] ونحوه كما يفيد حديث عائشة رضي الله عنها قالت: زففنا امرأة من الأنصار فقال النبيّ ﷺ: «يا عائشة أما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو»[62]، فقد أريد بالظاهر وبالضمير في "اجعلوه" العقد وبالضمير الآخر في "عليه" مقدماته استخدامًا. وعن عقبة بن عامر[63] قال: أمرنا رسول الله ﷺ «أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها، والضحى»[64] إذ أعيد الضمير إلى الضحائين لكون كل سورة فيها ذِكْرُ الضحى سورة الشمس وسورة الضحى فكان استخدامًا.

هذا ما استطعت أن أجمعه من كتاب الله وسنة نبيّه عليه أفضل الصلاة والسلام مما ورد فيه هذا النوع البديعيّ وهو الاستخدام.

---

(56) "ابن الحجاج مسلم"، *"المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم= صحيح مسلم"* باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، الحديث (2889) عن ثوبان رضي الله عنه.

(57) "الهروي القاري علي بن محمد"، *"مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح"* (3677/9) و"المباركفوري محمد عبد الرحمن"، *"تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي"* (332/6)

(58) "ابن ماجه محمد"، *"سنن ابن ماجه"*، أبواب الجنائز، باب ما جاء في شهود الجنائز، الحديث (1477)، عن أبي هريرة رضي الله عنه (474/1).

(59) "التتوي محمد"، *"حاشية السندي على سنن ابن ماجه"* (451/1) و"التتوي محمد"، *"حاشية السندي على سنن النسائي"* (42/4).

(60) "الترمذي محمد بن عيسى"، *"سنن الترمذي"* أبواب النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح، الحديث (1089) عن عائشة رضي الله عنها (390/3).

(61) "العيني محمود بن أحمد"، *"عمدة القاري شرح صحيح البخاري"* (136/20) و"ابن إسماعيل الأمير محمد"، *"التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ"* (512/2).

(62) "البخاري محمد بن إسماعيل"، *"صحيح البخاري"* كتاب النكاح، باب النسوة اللاتي يهدين امرأة إلى زوجها ودعائهن، الحديث (5162).

(63) هو عقبة بن عامر الجهنيّ، صحابي، ولي مصر سنة 44 هـ، روى عنه من الصحابة ابن عباس ومن التابعين سعيد ابن المسيب، توفي بالمقطم سنة 58هـ. "ابن الأثير علي بن أبي الكرم"، *"أسد الغابة في معرفة الصحابة"* (51/4)، و"الذهبي محمد بن أحمد" *"سير أعلام النبلاء"* (89/4).

(64) "البيهقي أحمد بن الحسين"، *"السنن الصغير للبيهقي"* (298/1).

المبحث الثالث: الاستخدام في الشعر العربيّ

لقد حظِي الشعر من الدراسة بعناية الكثيرين قديمًا وحديثًا، غير أنَّ الكثير من جوانبه ظلَّ مطويَّ الصفحة؛ لهذا آثرته بالدراسة، وحاولتُ إفراغ جهدي فيه، ألا وهو الاستخدام في شعرهم، ورتَّبتُ الأمثلة الشعرية باعتبار العصور حتى يظهر -من محاولتي الاستقراء في الشعر العربي حتى انتهاء العصر العباسي- الزمن الذي اعتنى فيه الشعراء به وسعَوا إلى استخدامه، وبدأت من العصر الجاهليّ.

فمما ورد في شعرهم مما فيه استخدام في هذه الحقبة قول الشاعر [الوافر]:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيْناهُ وإنْ كانوا غِضابًا[65]

معناه: إذا غيثت بلاد أعدائنا وأعشبت خرجنا إليها وقصدناها ورعينا عشبها لعزّنا ومنعتنا ولم يكن ذلك عن رضًى منهم وصلح. فقوله: "إذا نزل السماء" يريد مطر السماء، وهو أحد المعنيين، وقوله: "رعيناه" يريد رعينا ما يُنبِتُه مطر السماء، وهو المعنى الثاني.

وقوله [الكامل]:

وإذا مَشتْ تركتْ بصدرك ضعفَ ما بحُلِيّها من شدَّةِ الوسواسِ[66]

فالوسواس يحتمل معنيين، بلابل الصدر[67] وصوت الحلي[68]، فاستخدم المعنيين، الأول بقوله: تركت بصدرك يعني البلابل، والثاني بقوله: "ضعف ما بحليها" يعني صوت الحلي.

وقوله [الكامل]:

فَسقَى ٱلغَضَا والساكِنِيهِ وَإِن هُمُ شبُّوهُ بينَ جوانحٍ وقلوبِ[69]

فالغضا شجر مَعْرُوف واحدته "غضاة". أراد الشاعر بأحد الضميرين الراجعين إلى الغضا وهو المجرور في "الساكنيه" المكان وهو واد بنجد، وبالآخر وهو المنصوب في "شبوه" النَّار، أي أوقدوا في جوانحي نار الغضا، يعني نار الهوى التي تُشبِه نار الغضا، وخُص الغضا دون غيره لأنَّ جمره بطيء الانطفاء[70].

وقد كثر استعمال لفظ "الغضا" في الاستخدام، فمنه قول الشاعر [الطويل]:

أما والذي حَجَّ الملبونَ بيتَهُ فمِن ساجدٍ للهِ فيه وراكعِ
أما والذي حَجَّ الملبونَ بيتَهُ مِن البعد سلمى بين تلك الأجارِعِ
وحلَّتْ بأكنافِ الغَضا فكأنما حشَتْ نارَهُ بين الحشا والأضالِعِ[71]

وقوله [الكامل]:

حلَّتْ مطاياهم بملتفِّ الغضا فكأنَّما شَبّوه في الأكبادِ[72]

ومن الاستخدام قوله [الخفيف] يرثي فقيهًا حنفِيًّا:

---

(65) هذا البيت بلا نسبة في "ابن حجة الحموي تقي الدين"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (120/1)، ولمعاوية بن مالك في "السبكي أحمد بن علي"، *"عروس الأفراح"* (245/2)، ولجرير في "ابن معصوم علي بن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"*، (ص/60) ولم أجده في ديوانه.

(66) هذا البيت لأبي تمام "ابن أوس حبيب"، *"ديوان أبي تمام"* (ص/173).

(67) "البلبلة": وسواس الهموم في الصدر وهو البلبال، والجميع: البلابل. "الفراهيدي الخليل بن أحمد"، *"العين"* (320/8).

(68) "الفيروزآبادي محمد بن يعقوب"، *"القاموس المحيط"* (ص/580).

(69) هذا البيت للبحتري في "ابن عبيد الوليد"، *"ديوان البحتري"* (ص/246).

(70) "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (269/2)

(71) هذه الأبيات لابن أبي حُصَيْنة في "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص* (270/2) و"ابن معصوم علي بن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/61)، ولم أجده في ديوانه.

(72) هذا البيت لابن قلاقس في "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (270/2) و"ابن معصوم علي بن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/61)، ولم أجده في ديوانه.

وفقهًا أفكاره شِدْنَ للنُّعما (م) ن ما لم يشده شعرُ زيادِ[73]

و"النعمان" يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون النعمان بن المنذر الملك، أو النعمان بن ثابت الفقيه فاستخدم المعنيين بلفظ واحد فقال: "شِدْن للنعمان"، يعني أبا حنيفة، وقال: "شعر زياد" يعني النعمان ابن المنذر وهو النابغة وكان كثير المدح للنعمان.

وكذا قوله [الخفيف]:

مِثلَ وشيِ الوليدِ لانَتْ وإن كا (م) نتْ مِن الصُّنعِ مثلَ وشيِ حبيبِ

تلكَ ماذِيَّةٌ وما لذبابِ الصّـ (م) ـيفِ والسَّيفِ عندها مِن نَصيبِ[74]

يقول عن تلك الدِّرع إنها درعٌ ليِّنةٌ إلا أنها كفيلةٌ بتحطيمِ أسنَّةِ الرماح الخطِّيَّة على صلابتها كما يتحطَّمُ القصب، ثمَّ شبَّهها بصنعتي شاعرين البحتريّ وهو الوليد بن عبيد وأبي تمام وهو حبيب بن أوس، فجعلها كصنعة الوليد لِيْنًا وسلاسةً وكصنعة أبي تمام متانةً وإحكام صنعة، ثمَّ وصفها بالماذِيَّةِ، واللفظة تحتملُ معنيين، أحدهما العسل وقد يُطلَق على السُّكَّر في سيلانه، والآخرُ الدرعُ اللينة أو البيضاء، فلفظ "ماذيَّة" في البيت تورية لاحتماله المعنيين، ثم أتى بالاستخدام في قوله "ذباب"، فأضافه إلى السيف أوَّلًا وهو طرفُه الحادُّ، وهذا يُوافقُ معنى الدِّرع، فيؤول المعنى إلى أنَّ السَّيفَ لا حظَّ له عند هذه الدرع لردِّها ضربته، ثمَّ لمَّا عطف الصيف على السيف أفهم الذباب الطيّار، وهو مولَعٌ بالحلاوات، والعسلُ منها، فيؤول المعنى هنا إلى أنَّها لا يقربُها ذباب العسل، فالحاصل أنَّه استخدم لفظ الذُّبَاب فِي معنييه الأول طرف السَّيْف وَالثَّانِي الطَّائِر المعروف.

ومنه قوله [البسيط]:

رأى العقيقَ فأجرى ذاك ناظرُهُ مُتيمٌ لجَّ في الأشواقِ خاطِرُهُ[75]

فإنه أراد بالعقيق أوَّلًا المكان ثم أعاد اسم الإشارة عليه بمعنى الدم.

هذا ما وجدته ضمن هذه الفترة الزمنية الواسعة، فإنه مع وجود الاستخدام في القرآن الكريم وفي حديث رسول الله ﷺ كان كالنادر في أشعارهم.

ثمَّ بعد انقضاء العصر العباسي عام 656هـ تقريبًا، وفي عصر المماليك الأتراك الذي امتدَّ حتى عام 750هـ تقريبًا كثُر لجوء الشعراء إلى البديع اللفظي والمعنويّ، وكثُر الاستخدام في شعرهم بالنسبة لما مضى، فكانت هذه الفترة هي الفترة الذهبية التي ضُمِّن فيها الشعر الاستخدام، ثمَّ ضعُف بعدها واضمحل.

ومن أبرع الاستخدام في لفظ "الغضا" ما قاله الشاعر -في هذه الحقبة الزمنيَّة-[الكامل]:

أحمامةَ الوادي بشرقيّ الغضا إن كنتِ مُسعِدةَ الكئيبِ فرجِّعي

فلقد تقاسمْنا الغضا فغُصونُه في راحتيكِ وجَمرُهُ في أَضلُعِي[76]

فقد استُعمِل فيه لفظ الغضا بالمعنيين؛ لأنه جاء به مقتسمًا بين الشاعر والحمامة فجعل لها الغصن النَّضْرَ مَجْثَمًا وجعل لضلوعه ما اتَّقد من ذلك نارًا. ففي البيت الأول لما قال: "بشرقيّ الغضا" أفهم معنى المكان المعروف بتلك التسمية، ثمَّ لبيان ثاني المعنيين والتعبير عن أشجانه واحتياجه إلى إسعاد الحمامة له بالهديل أتى

---

(73) هذا البيت للمعري في "ابن حجة الحمويّ تقي الدين"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (121/1) و"العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (270/2).

(74) هذا البيت للمعري في "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (270/2) و"ابن معصوم علي بن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/62)، ولم أجده في ديوانه.

(75) هذا البيت بلا نسبة في "الدسوقي محمد بن عرفة"، *"حاشية الدسوقي على مختصر المعاني للتفتازاني"* (56/4) و"المراغي أحمد بن مصطفى"، *"علوم البلاغة البيان المعاني البديع"* (ص/239).

(76) هذان البيتان للبدر بن لؤلؤ الذهبي في "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (270/2)، و"ابن معصوم علي ابن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/61).

بمعنى النار على قسمين نارٍ غير متَّقِدةٍ كامنةٍ في الغضن قبل احتراقه، وخصَّ بذلك الحمامة نفسَها، ونارٍ متَّقِدَةٍ هي نتيجةُ احتراقِ غصون الغضا وخصَّ بها قلبه.

ومما هو من شبه الاستخدام قول الشاعر[مجزوء الكامل] :

أبدا حديثيَ ليس بالـ (م) منسوخِ إلا في الدفاترْ[77]

فإنه أراد بالنسخ الأول الإزالة وأراد به في الاستثناء النقل، أي: إلا في الدفاتر فإنه ينسخ وينقل، فإيرادُ كلمة منسوخ أوَّلًا كان على معنى ما رُفِع حكمُهُ والعملُ به ثمَّ لما استثنى وردَّ كلمة الدفاتر على المنسوخ تبيَّن معنى المنقول إلى نسخة أخرى. وفي استعمال لفظتي حديث ومنسوخ توجيه بمصطلحات الحديث.

ومن الاستخدام قوله [مجزوء الرمل]:

إنَّ في عينيكِ معنًى حدَّثَ النَّرْجِسَ عنهُ

ليت لي من غصنِهِ سهْـ (م) ـمًا ففي قلبيَ منه[78]

فالبيت الأول منهما مؤدَّاه تشبيه العينين بالنرجس وهو من تقليد الشعراء، بيد أنَّ الشاعر هنا جدَّده فقال: "إنَّ لعينيكِ صفةً يصفها النرجس بتحديثه عنك"، ثمَّ غيَّر القول في البيت الثاني إلى التمنّي، فقال: "أتمنى أن يكون لي سهمٌ -وهو الحظُّ أوَّلًا والنصيب- من غصن ذلك النرجس" أي من قوامِك، ثمَّ لما قال: "ففي قلبي منه" كان التقدير ففي قلبي منه سهمٌ، فردُّ كلمة القلب على لفظة السهم أفهم معنى ما يُرمى بالقوس، ويجوز أن يُردَّ ضمير "منه" على السهم بتقدير في قلبي من ذلك السهم أي من ذلك الجنس جنس السِّهام.

ومن ظريف الاستخدام قوله [مجزوء الوافر]:

وَربَّ غَزالةٍ طَلعتْ بقلبي وَهْوَ مَرعاهَا

نَصبتُ لهَا شِباكاً مِنْ لجينٍ ثمّ صِدْناها

وقالتْ لِي وقدْ صِرْنا إِلَى عَينِ قَصَدْناها

إِلَى عَينِ قَصَدْناها بِطَلْعتها ومجراها[79]

ففي البيت الأول استخدام حيث أراد بـ"الغزالة" أوَّلًا الشمس، ثمَّ ردَّ عليها الضمير في "مرعاها" والمراد البهيمة، وفي البيت الرابع أربع استخدامات والمعنى: بذلت الذهب فاكحل عينك بطلوع عين الشمس ومجرى العين الجارية من الماء.

ومنه قوله [الطويل]:

لَئِن لم أُبرقِعْ بالحَيا وَجْهَ عِفَّتي فَلَا أَشْبَهَتهُ راحتي فِي التكرمِ

وَلَا كنتُ مِمَّن يكسِرُ الجَفْن فِي الوغى إذا أَنا لم أَغضُضه عَن رَأْيِ مَحْرَمِ[80]

"الحيا" إذا رد عليه لفظ عفَّة مقرونًا بالوجه والبُرقُعِ كان المعنى الحياء مقصورًا ضرورة، ثمَّ ضمير أشبهته إذا رُدَّ على الحيا مقرونًا بالتكرم المذكور كان المراد بالحيا المطر مقصورًا على الأصل.

وفي البيت الثاني يدعو على نفسه بأن لا يُعَدَّ في الشجعانِ أولي البسالةِ المكنيِّ عنهم بمن يكسِر جَفن السيف استبسالًا واستقتالًا، فرَدُّ الوغى على الجفن يُفهم غمد السيف ورد ضمير "أغضضه" يُفهم غطاء العين.

وقوله [البسيط]:

---

(77) هذا البيت للهاء زهير في "ابن محمد زهير"، *"ديوان الهاء زهير"* (ص/124)، وقد ذكر المحقق أنه ليس من شعره.

(78) هذان البيتان لرشيد الدين الفارقي في "ابن أبي حجلة المغربي أحمد"، *"ديوان الصبابة"* (ص/28) و"العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (273/2).

(79) هذه الأبيات لعمر بن الوردي في "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (272/2) و"ابن معصوم علي بن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/61).

(80) هذان البيتان للصفي الحلي في "الحلي صفي الدين"، *"ديوان صفي الدين الحلي"* (ص/46).

مِن كلّ أبلجَ واري الزَّندِ يوم قِرًى مشمّرٍ عنهُ يومَ الحربِ مُصطَلِمِ[81]

يصِفُ الأبطال ذوي السخاء فلذا قال: "مِن كل أبلج" أي كلّ ناصعِ الجبينِ كريمِ الخصال، ثمَّ استخدمَ الزَّند بمعنى ما تُقتَدَحُ به النار وهو أعلى العودين وأسفلُهما الزَّندَةُ وبيَّن ذلك المعنى بإضافة "واري" إليه وهو اسم فاعلٍ من وَرِيَ إذا اتَّقَد، ويُوافِقُ هذا المعنى قوله: "يوم قِرًى" أي يوم إطعام الضيف، ثمَّ لما قال: "مشمّرٍ عنه يوم الحرب" أفهم بضمير "عنه" معنى زَندِ اليد.

وفي عصر المماليك الجراكسة عادت الحال إلى ما كانت عليها من ندرة استعمال الاستخدام، فمنذ ذلك الزمن إلى أيامنا كان وجوده في الأشعار العربية كالكبريت الأحمر.

فمن الاستخدامات البديعة قول الشاعر في مدح النبيّ ﷺ [الطويل]:

إذا لم تُفِضْ عَيْني العَقيقَ فلا رأَتْ منازلَه بالقُرْبِ تبْهى وتَبْهرُ

وإن لم تواصلْ عادَةَ السَّفْح مُقلتي فلا عادَها عيشٌ بمغناهُ أَخْضَرُ[82]

المعنى أنَّ الشاعر يدعو على نفسه بأن يُحرَمَ رؤيةَ ديارِ أحبَّتِه، وهي عنده من عظيم اللذات، إذا لم يبكِ عِوَضَ الدمعِ دمًا وكذا يدعو في تاليه بأن يُحرَمَ رَغَد العيشِ ونضْرَتَه بذلك السَّفح إن لم تسفَح مقلته الدمع. أتى في البيت الأول بالاستخدام في لفظة "العقيق" وذلك برده على قوله: "تُفِض" وإنما تفيض العينُ الدمعَ ثمَّ إذا رُدَّ عليه ضمير "منازله" فأفهم الوادي الذي يُسمّى علمًا بالعقيق، وإنما سمى الدمع أوَّلًا "عقيقًا" لادعاء بكائه دمًا كعادة الشعراء، فاستعار له اللفظ الدالّ على الجوهر، أما في ثاني البيتين فقوله: "السفح" إذا رُدَّ عليه "مقلتي" مع مفهوم التركيب تبيَّن معنى مصدر سفح الدمع إذا أراقه، ثمَّ يُردّ عليه ضمير "مغناه"، فيكون المعنى: الموضع إذا غني بأهله، والمراد منحدر الجبل.

وقوله [الطويل]:

سَقى الله أكنافَ الغضا سائلَ الحيا وإن كنتُ أُسْقى أدمعًا تَتَحَدّرُ

وعيشًا نَضَا عنهُ الزَّمَانُ بياضَهُ وخلّفهُ فِي الرَّأْس يزهو ويزهَرُ[83]

دعا في البيت الأول بأن يسقِيَ الله ناحيةَ الغضا غيثًا جمًّا ثمَّ عطف الكلامَ في شبه مطابقةٍ فقال: "هذا على أنني أُسْقى دموعيَ المتحدِّرةَ" أي أسأل لذلك المغنى الرخاء والسرور وإن كنتُ في شدَّةٍ وحُزْن. ثمَّ قال: "وسقى الله ذلك العيش الغابر الذي كان أبيضَ -بياضَ الحُسْنِ والنَّعمةِ مجازًا-ثمّ نسخَ الدهرُ بياضهُ ورماه في رأسي شيبًا زاهِيًا".

استخدم البياض بمعنيين الأول الحسنُ ودَعة العيش وهو معنًى كنائيّ يُفهَمُ برد البياض إلى قوله: "عيشًا"، ثمَّ قوله: "وخلَّفه في الرأس" يبيّنُ معنى البياض اللوني الدالّ على المشيب.

ومنه قوله [الطويل]:

فَكم ردّ مِنْ عَيْنٍ وجادَ بِمثلها ولوْلاهُ مَا ضاءَتْ ولمْ تكُ تَعذُبُ[84]

استخدم لفظة العين أولًا بمعنى الباصرةِ باعتبار قوله: "ردَّ" أي معجزةً كرد عين قتادة ثمَّ بمعنى الذهبِ بردّ "جاد بمثلها" ثمَّ بمعنى عين الشمس برد قوله: "ضاءتْ" ثمَّ معنى رابع وهو ينبوع الماء برد "تعذُب"، وقوله [الكامل]:

تَاللَّهِ مَا ذُكِرَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ إلّا وأجْراهُ الْغَرَامُ بِمَحْجِرِي[85]

---

(81) هذا البيت للصفي الحلي في "الحلي صفي الدين"، *"ديوان صفي الدين الحلي"* (ص/700).

(82) هذان البيتان لابن نباتة في "ابن حجة الحموي تقي الدين"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (123/1) و"ابن معصوم علي بن أحمد""، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/62) ولم أجده في ديوانه.

(83) هذان البيتان لابن نباتة في "ابن حجة الحموي تقي الدين"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (37/1) و"العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (271/2) ولم أجده في ديوانه.

(84) هذا البيت لابن مليك في "العباسي عبد الرحيم"، *"معاهد التنصيص على شواهد التلخيص"* (272/2)، و"ابن معصوم علي بن أحمد"، *"أنوار الربيع في أنواع البديع"* (ص/62).

إذ المراد بالعقيق الوادي الذي بظاهر المدينة ببلاد الحجاز وبالضمير الذي يعود إليه الدم الأحمر المذروف دمعًا الشبيه بالعقيق.

وقوله [البسيط]:

واستخدموا العين مني وهْي جارية وكم سمحْتُ بها أيامَ عُسْرهمِ[86]

الاستخدام هنا في كلمة "العين" وقعت أوَّلًا بمعنى الباصرة، وقوله: "واستخدموا" يُفيد أنهم أبكَوه فذلك استخدامهم لعينه، ولكنَّه وزَّى باسم النوع البديعيّ، ثمَّ جاء بلفظ "جارية" ليُبيّنَ أنه أراد تلك التي تذرفُ الدمع إلا أنه زادها توريةً ملائمةً لمعنى الاستخدام اللغوي، فكأنما عينه جاريةٌ مملوكةٌ تخدم أحبابَه بالبكاء، وأمَّا المعنى الآخر فهو في العجز يبيّنُه قوله: "سمحتُ بها" أي المال.

جماليات الاستخدام:

بعد هذا العرض لبعض أمثلة الاستخدام لا يسعني إلا أن أقف على جماليات الاستخدام التي بها كان أعلى رتبة عند علماء البديع من غيره وأحلى موقعًا. وفي بضعة أسطر سأبرز شيئًا من جماليات الاستخدام وكما يقال:" يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق"[87].

فمن جمالياته من حيث الإجمال تعدّد أغراضه، فقد يكون الهدف منه إلغاز الكلام وإعمال فكر المخاطب، أو يكون لجذب انتباه القارئ ودفع الملل ونقل إحساس الأديب أو الشاعر، ومنها ما يكون لرفع المستوى الفنيّ والبلاغيّ للبيت الشعري، من خلال ازدواج المعنى الذي يعمد إليه الشاعر، فإنَّ دلالات اللفظ الواحد تتعدد بحسب السياقات المتضمنة له، فمثلًا لفظ: ضَرَبَ، نجد له معاني مختلفة، فضرب زيدٌ عَمرًا، معناه عاقبه، وضرب له قُبة، أي أقام، وضرب العملة، أي صاغها، وضرب له موعدًا، أي حدّد، وضرب في الأرض، أي: سعى، وهذه سمةٌ تندر في اللغات، وتظهر بشكلٍ جليٍّ في هذا النوع البديعي من خلال عود الضمير.

أمّا تفصيلًا فيقال:

لمّا كان الاستخدام نوعًا بديعيًّا شديد الدقة، لطيف المأخذ، كان حسنُه كامنًا في عمق تصوُّره، وغموض كيفيَّته؛ وأما جمالُه الظاهريّ فنواحٍ منها: إلغاز الكلام، وجذب انتباه القارئ ليُعملَ فكره، ودفع الملل بتركيب غير مألوف، ورفع مستوى العبارة فنيًّا وبلاغيًّا.

فالجمال الأخص في الاستخدام إذن ما ذكرتُ أوَّلًا، وأمَّا ما يُحسِّنه في ظاهر القول فليس بخاصٍّ به؛ وذلك يظهر جليًّا إذا ما قورِن بينه وبين سائر أنواع البديع المتعلِّقة بوحدة اللفظ –مردَّدًا أو غير مردَّدٍ- مع تعدُّد المعنى، كالجناس والتورية والتوجيه. فالاستخدام أبعدها منالًا وأقلُّها وقوعًا وأعوصُها تركيبًا، وقد كاد لذلك يخفى إلا على مَن كان ثاقِبَ النَّظر، مرهف الحسِّ، نفَّاذ البصيرة بخلاف تلك الأنواع التي هي أقربُ مطلبًا وأيسر مسلكًا.

فالجناس التام مثلًا نوعٌ لفظيٌّ مبنيٌّ أصلًا على تَكرارِ اللفظ الواحد بمعنيين مختلفين، كقول الشاعر [الكامل]:

إن لم تُقَرّحْ أدمعي أجفاني من بعدِ بُعدِكمُ فما أجفاني88

جمالُ النوع البديعي هنا يتمثَّلُ في التكرير الموسيقيّ الذي يلَذُّ للسامع، إذ يتبيَّن اختلافَ المعنى بين اللفظين: "أجفاني" جمعِ جفنٍ مضافًا إلى ضمير المتكلم و"أجفاني" أفعل التعجب الذي مفعوله الضمير نفسه.

---

(85) هذا البيت لابن معتوق الموسوي في "المراغي أحمد بن مصطفى"، *"علوم البلاغة البيان المعاني البديع"* (ص/239) و"حبنكة عبد الرحمن"، *"البلاغة العربية"* (402/2).

(86) هذا البيت لابن حجة في "ابن حجة الحموي تقي الدين"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (119/1).

(87) "مرتضى الزَّبيدي محمّد بن محمد"، *"تاج العروس من جواهر القاموس"* (68/9).

(88) هذا البيت لشمس الدين الكوفي في *"مجلة كلية الآداب"* (ص/108) ولم أجد ديوانه.

وأما التورية فيظهر حسنُه في إيقاع المعنيين جميعًا –أو ثلاثة معانٍ في النادر- على لفظٍ واحدٍ غير مكرَّر، شريطة أن يحتملهما التركيبُ ويحسُنا في السياق كقول الشاعر [المجتث]:

قالت إذا كنتَ ترجو وصلي وتخشى نفوري

صفْ وردَ خدّي وإلا أجورُ ناديتُ جوري[89]

فإن لفظة "جوري" وحدها تتصل معنًى بقوله قبلُ: "أجورُ"، فيقع في نفس السامع معنى الأمر بالجَور، ثم يرجعُ القهقرى بذهنه إلى المعنى الأول المفهوم من قول الفتاة: "صف ورد خدي" فيستطرف هنا معنى الورد المنسوب إلى بلد "جُور" من بلاد العجم!

ونوع التوجيه سليلُ التورية، كأنما هو مُوَلَّدٌ منها، غير أنَّ له مزيَّةً بنكهة الاصطلاح العلميّ أو الأدبيّ أو الفنيّ. فقول الشاعر مثلًا في معرض الغزل [الطويل]:

جعلتُك للتمييز نصبًا لناظري فهلّا رفعتَ الهجرَ فالهجرُ فاعلُ[90]

امتزج فيه ضربان من جمال التعبير: التورية على النحو المتقدِّم ذكره، وكونها وقعتْ باصطلاحات النحو حصرًا، بحيثُ يستعذبُ القارئ هذا التأنُّقَ التعبيريّ بقلبِ المصطلحات النحويّة ألفاظًا غزليَّة تثير الشجون.

ومن الجناس نوعٌ يُشارك الاستخدام في ذلك الغموض المستحسن، بيدَ أنَّه أقربُ منه منالًا. وذلك هو الجناس المعنويّ، وعلى الخصوص منه: جناس الإضمار[91]؛ ولنمثِّل عليه بقول الشاعر [السريع]:

يلومني العاذل في حبِّه وما درى شعبانُ أني رجب[92]

فليقفِ القارئ ههنا متسائلًا، يُقلِّبُ أوجه اللفظ ليُدرِكَ حقيقة المعنى بربطِ التركيبِ ولو بالأقلّ! والجوابُ العجيبُ: أنَّ قوله "شعبان" هو الشهر المعروف، فإذا رجعناه إلى تسمية الجاهلية فاسمه: "العاذل"[93]، وكذا "رجب" كان يُسمى في الجاهليَّة "الأصمّ"[94]؛ فمن هنا ينتقل الذهن إلى المعنيين اللغويين: اسم الفاعل من عذل، والصفة المشبهة من الصمم، فيعود المعنى: وما درى العاذل أني أصمّ.

وإذا آل بنا الكلام إلى الاستخدام ألفيناه ضربًا عجيبًا، أقربَ إلى الخفاء منه إلى الوضوح، يمرُّ به القارئ فلا يكاد يتنبَّه إليه حتى يُشكِل فهم عبارته فيعود عليه بالنظر، أو يتداخل في مفهومه معنيان فيقفَ وِقفة المتبصِّر؛ ولا يلبث بعد أن يدرك حقيقة الأمر حين تنجلي له الصورة المعنويَّة وتَضِح المزيَّة الفنيَّة، فهنالك يجد من لذَّة الفكر ونشوة الوعي ما يفوق الوصف.

فمثلًا قوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) بديعها استخدام رائع: يقرأ القارئ فإذا بلغ "فليصمه" فإذا ردَّ ضمير المفعول إلى الشهر حصل في فهمه معنى الثلاثين يومًا من رمضان؛ ولكنّ معنى شهادة الشهر المدركة أوَّلًا إنما هو: معاينة الهلال؛ فأصل لفظة "الشهر" في كلام العرب: "الهلال"، واللغويون يذكرون ذلك نصًّا -وقد مرَّ بيانه-، بل جعله ابن فارس في مقاييسه[95] هو الأصل كما ذكرنا، وإنما سمِّي الشهر الزماني الذي هو ثلاثون يومًا بالمجاز المرسل لارتباط تحديد بدء الشهر وانتهائه برؤية الهلال.

---

(89) هذان البيتان لابن الوردي في "ابن حجة الحموي"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (81/1).

(90) هذا البيت لابن أبي الإصبع في "ابن حجة الحموي"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (310/1).

(91) وهو أن يضمر ركنا الإسناد ويذكر ألفاظ مرادفة لأحدهما، فيدل المظهر على المضمر. "السبكي أحمد بن علي"، *"عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"* (299/2).

(92) هذا البيت بلا نسبة في "مرتضى الزَّبيدي محمّد بن محمد"، *"تاج العروس من جواهر القاموس"* (458/29).

(93) الأنباري محمد بن القاسم، *"الزاهر في معاني كلمات الناس"* (357/2).

(94) "مرتضى الزَّبيدي محمّد بن محمد"، *"تاج العروس من جواهر القاموس"* (458/29).

(95) " الرازي ابن فارس أحمد"، *"معجم مقاييس اللغة"* (222/3).

فالمزيَّة الجمالية هنا تجاوز مجرد إيقاع المعنيين على اللفظ الواحد إلى استخدام ذلك اللفظ: أي إعادة استعماله بغير تكرير، فردًا منفردًا، وإنما يحصل ذلك بردِّ فعل الصوم على الشهر أو ضميره، ولا يصح على ذلك حملُ اللفظ على المعنى الأول الذي هو الهلال، لأن الجرم الفضائي لا يُصام! هكذا تنتسج صورة المعنى بهذه (التِّقنيَّة) العجيبة: استخدام اللفظة الواحدة بغير إعادة.

ومن الاستخدام الحديثيّ قوله عليه الصلاة والسلام في ذلك العرُس الأنصاريّ «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف». فقوله عليه الصلاة والسلام: "أعلنوا" مفعوله لفظة "هذا" و"النكاح" بدل منه، ثم يأتي قوله عليه الصلاة والسلام: (واجعلوه في المساجد) فيرد ضمير المفعول به على كلمة (النكاح) بمعنى العقد الشرعي الذي يملِك الرجل به المرأة، وقوله عليه الصلاة والسلام: "واضربوا عليه" أي على مقدماته وهي الزفاف ونحوه، فحلاوة اللفظ هنا تقترن بها الحلاوة المعنوية الماثلة في تخصيص ثاني الاستعمالين بمقدمات النكاح بعد سبق استعمال كلمة النكاح بمعنى العقد الشرعي.

وأما الشعر فجماليات استخدامه تتنوَّع أشكالًا وضروبًا: فتارة يؤتى بلفظة الاستخدام مجردة ثم يكون ردّ اللفظين عليها، أو رد الضميرين، أو لفظ وضمير؛ وتارة يستعملها الشاعر بمعنى أول الأمر ثم يرجع على ذلك الاستعمال بما ينقلُ اللفظ إلى ثاني المعنيين، ولكلِّ شاعرٍ بلاغته وبراعته.

فقول الشاعر مثلًا [البسيط]:

وللغزالة شيء من تَلفُّتِه ونورها من ضيا خدَّيه منسكبُ[96]

أتى فيه أولًا بكلمة الغزالة، على احتمال معنييها، ثم أتى بالخبر فلم يُغنِ في تحقيق المعنى المراد، لإطنابه في الوصف إلى أن قال: "من تلفته" فكان التلفُّت وضميره علامتين على أنه أراد معنى الظبية؛ وبالأسلوب عينه، إلا أنه منقلبُ الإسناد، ردَّ النور وضميره فأفهم معنى الشمس –على أنَّ تطويلَ العَجُز إلى بلوغ الخبر فيه تكثيفٌ لجمال الاستخدام بتوسيع ثاني المعنيين، إذ جعلَ للغزالة نورًا منسكِبًا من الخدين النيّرين فضاعف إحضارَ صورة الشمس وضوئها في الذهن بعد إحضار الظبية الوحشيَّة ذات التلفُّت اللطيف، بل الشديد اللطافة بحيث يفوت الناظر إدراكه أحيانًا، وهو ما عبَّر عنه بقوله: "شيء من تلفُّته".

الخاتمة والتوصيات

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وكرمه ترفع الدرجات، وبمنّه وجوده تنال العطايا والهبات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وآله وصحبه ذوي الهمم العاليات، وسلم تسليمًا وبعد:

فأحمد الله الذي سهَّل إتمام هذا البحث على هذا النحو، وقد توصَّلْت فيه إلى بعض النتائج، أهمها:

أولًا: إن الخوض في الاستخدام له أثر واضح في فهم كلام الله وكلام رسوله وفهم الشريعة.

ثانيًا: إن إهمال علوم العربية أو بعضها أو بعض الفروع فيها يؤدي إلى فهم سقيم لكلام العرب.

أما أهمّ التوصيات التي أبانت عنها الدراسة:

أوَّلًا: استحداث طرق لتبسيط إيصال المعلومات في بعض أبواب البلاغة لاسيَّما التي لم تُطرق كثيرًا ولم يتعرَّض لها الباحثون.

ثانيًا: إثارة اهتمام وشغف قارئ العربية عبر إظهار جمال مباحث البلاغة وارتباطها الوثيق بالمعاني المرادة، إذ لا شكَّ أنَّ لفهم النصوص الأدبية وتذوَّق جمالها تأثيرًا في النفوس يفوق فهم المعاني الظاهرة.

ثالثًا: محاولة حصر الآيات والأحاديث التي ورد فيها استخدام في العقائد وقد أُسيء تفسيرها فأدى ذلك إلى تحريف في المعاني المرادة، لخطورة الخطأ في هذا العلم.

---

(96) هذا البيت بلا نسبة في "ابن حجة الحموي"، *"خزانة الأدب وغاية الأرب"* (121/1).

فهرس المصادر والمراجع

1- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم، *أسد الغابة في معرفة الصحابة*، دار الكتب العلمية، 1415هـ/1994م.

2- ابن إسماعيل الأمير محمد، *التَّنويرُ شرح الجامع الصَّغير*، مكتبة السلام، 1432هـ/2011م.

3- الأنباري محمد بن القاسم، *الزاهر في معاني كلمات الناس*، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1412هـ/1992م.

4- الأندلسي أبو حيان محمد بن يوسف، *البحر المحيط في التفسير*، دار الفكر، 1420هـ

5- ابن أوس حبيب، *ديوان أبي تمام*، د.ن، د.ت.

6- البخاري محمد بن إسماعيل، *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري*، دار طوق النجاة، 1422هـ

7- البرمكي الإربلي أحمد بن محمد، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، دار صادر، 1994م.

8- البيهقي أحمد بن الحسين الخراساني أبو بكر، *السنن الصغير*، جامعة الدراسات الإسلامية، 1410هـ/1989م.

9- التتوي محمد، *حاشية السندي على سنن ابن ماجه*، دار الجيل، د.ت.

10- التتوي محمد، *حاشية السندي على سنن النسائي*، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1406هـ/1986م.

11- الترمذي محمد بن عيسى، *سنن الترمذي*، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1395هـ/1975م.

12- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، *"دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر*، دار الفكر، 1430هـ/2009م.

13- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، *زاد المسير في علم التفسير*، دار الكتاب العربي، 1422هـ

14- الجوهري إسماعيل بن حماد الفارابي، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*، دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م.

15- ابن الحجاج مسلم أبو الحسن القشيري النيسابوري، *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ=صحيح مسلم*، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

16- حَبَنَّكَة عبد الرحمن الدمشقي، *البلاغة العربية*، دار القلم، 1416هـ/1996م.

17- ابن حجة الحموي تقي الدين أبي بكر، *خزانة الأدب وغاية الأرب*، دار الهلال، 2004م.

18- " ابن حجة الحموي تقي الدين"، *"كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام"* ، المطبعة الإنسية، بيروت، 1312هـ.

19- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، *الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1392هـ/1972م.

20- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، دار المعرفة، 1379هـ.

21- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، *لسان الميزان*، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ/ 1971م.

22- ابن أبي حجلة المغربي أحمد، *ديوان الصبابة*، د.ن، د.ت.

23- الحلي صفي الدين، *ديوان صفي الدين الحلي*، دار صادر، د.ت.

24- الحموي ياقوت الرومي، *معجم الأدباء*، دار الغرب الإسلامي، 1414هـ/1993م.

25- الخازن علاء الدين علي بن محمد، *لباب التأويل في معاني التنزيل*، دار الكتب العلمية، 1415هـ

26- الخطيب الشربيني محمد بن أحمد الشافعي، *السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير*، مطبعة بولاق، 1285هـ

27- الدسوقي محمد بن عرفة، *حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني*، المكتبة العصرية، د.ت.

28- الدينوري عبد الله بن مسلم، *الشعر والشعراء*، دار الحديث، 1423هـ

29- الذهبي محمد بن أحمد، *سير أعلام النبلاء*، دار الحديث، 1427هـ/2006م.

30- الرازي محمد بن عمر، *مفاتيح الغيب التفسير الكبير*، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ

31- " الرازي ابن فارس أحمد"، *"معجم مقاييس اللغة"* ، دار الفكر، 1399هـ/1979م.

32- الزركشي محمد بن عبد الله، *البرهان في علوم القرآن*، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، 1376هـ/1957م.

33- السبكي عبد الوهاب ابن تقي الدين، *طبقات الشافعية الكبرى*، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ

34- السبكي أحمد بن علي، *عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح*، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1423هـ/2003م.

35- السخاوي محمد بن عبد الرحمن، *الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر*، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ/1999م.

36- ابن سعيد اليمني نشوان، *شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم*، دار الفكر المعاصر، 1420هـ/1999م.

37- السمين الحلبي أبو العباس أحمد بن يوسف، *الدر المصون في علوم الكتاب المكنون*، دار القلم، د.ت.

38- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، *الإتقان في علوم القرآن*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974م.

39- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، المكتبة العصرية، د.ت.

40- الصفدي خليل بن أيبك، *الوافي بالوفيات*، دار إحياء التراث، 1420هـ/ 2000م.

41- صلاح الدين محمد بن شاكر، *فوات الوفيات*، دار صادر، د.ت.

42- الطبري محمد بن جرير، *جامع البيان في تأويل القرآن*، مؤسسة الرسالة، 1420هـ/2000م.

43- الطيبي الحسين بن محمد، *شرح الطيبي على مشكاة المصابيح*، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1417هـ/1997م.

44- العباسي عبد الرحيم، *معاهد التنصيص على شواهد التلخيص*، عالم الكتب، د.ت.

45- "عصام الدين إبراهيم بن محمد"، *"الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم"* ، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت.

46- العكري عبد الحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، 1406هـ/1986م.

47- العيني محمود بن أحمد، *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

48- ابن عبيد الوليد، *ديوان البحتري*، د.ن، د.ت.

49- الفراهيدي الخليل بن أحمد، *كتاب العين*، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

50- الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، *القاموس المحيط*، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ/2005م.

51- القرطبي محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي*، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م.

52- ابن ماجه أبو عبد الله محمد القزويني، *سنن ابن ماجه*، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

53- المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن، *تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي*، دار الكتب العلمية، د.ت.

54- المتنبي، *ديوان المتنبي*، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ت.

55- ابن محمد زهير، *ديوان البهاء زهير*، د.ن، د.ت.

56- المراغي أحمد بن مصطفى، *علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع*، د.ن، د.ت.

57- مرتضى الزَّبيدي محمّد بن محمد، *تاج العروس من جواهر القاموس*، دار الهداية، د.ت.

58- المرزباني محمد بن عمران، *معجم الشعراء*، دار الكتب العلمية، 1402هـ/1982م.

59- ابن محمد الحنفي أحمد، *حاشيةُ الشِّهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عنايةُ القاضي وكفايةُ الرّاضي على تفسير البيضاوي*، دار صادر، د.ت.

60- ابن معصوم علي بن أحمد، *أنوار الربيع في أنواع البديع*، د.ن، د.ط.

61- المناوي محمد المعروف بعبد الرؤوف ابن تاج العارفين القاهري، *فيض القدير شرح الجامع الصغير*، المكتبة التجارية الكبرى، 1356م.

62- ابن منظور الأنصاري محمد بن مكرم، *لسان العرب*، دار صادر، 1414هـ

63- النسفي عبد الله بن أحمد، *تفسير النسفي*، دار الكلم الطيب، 1419هـ/1998م.

64- النعماني عمر بن علي، *اللباب في علوم الكتاب*، دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م.

65- الهروي القاري علي بن محمد، *مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح*، دار الفكر، 1422هـ/2002م.

66- ابن الواحد المصري عبد العظيم، *تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن*، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ت.